الدرس السادس والعشرون: الإيمان بالقدر خيره وشره

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع عمر بن الخطاب ☺ عند دخوله إلى بلاد الشام، أخرج البخاري في صحيحه عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ ☻ ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ☺ خَرَجَ إِلَى الشَّأْمِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرْغَ، لَقِيَهُ أُمَرَاءُ الأَجْنَادِ - أي الجند - أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ - أي الطاعون - قَدْ وَقَعَ بِأَرْضِ الشَّأْمِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقَالَ عُمَرُ: ادْعُ لِي الْمُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ فَدَعَاهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّأْمِ فَاخْتَلَفُوا، فَقَالَ: بَعْضُهُمْ قَدْ خَرَجْتَ لأَمْرٍ وَلاَ نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَلاَ نَرَى أَنْ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ، فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي - أي قوموا واذهبوا عني -، ثُمَّ قَالَ: ادْعُوا لِي الأَنْصَارَ فَدَعَوْتُهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ فَسَلَكُوا سَبِيلَ الْمُهَاجِرِينَ - أي قالوا ما قاله المهاجرين - وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلاَفِهِمْ فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي ثُمَّ قَالَ: ادْعُ لِي مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ مَشْيَخَةِ قُرَيْشٍ - أي كبارهم في السن - مِنْ مُهَاجِرَةِ الْفَتْحِ فَدَعَوْتُهُمْ، فَلَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ رَجُلاَنِ فَقَالُوا: نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ وَلاَ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ، فَنَادَى عُمَرُ فِي النَّاسِ إِنِّي مُصَبِّحٌ عَلَى ظَهْرٍ - كناية عن الرجوع للمدينة - فَأَصْبِحُوا عَلَيْهِ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ: أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللهِ؟! فَقَالَ عُمَرُ: لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ - أي ممن ليس في منزلتك أي لأدبته -، نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ وَالأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ، قَالَ: فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ، فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي فِي هَذَا عِلْمًا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: **"إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ** - أي

بالطاعون - **بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ** - فلا تدخلوها - **وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ** -قَالَ: فَحَمِدَ الله عُمَرُ - أي على موافقة اجتهاده واجتهاد كثير من الصحابة لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم - ثُمَّ انْصَرَفَ [1].

فالله سبحانه وتعالى لا يقبل عمل العبد إذا لم يؤمن بالقدر خيره وشره أى يعلم أن ما حدث له لم يكن بالمقدور ألا يحدث له وما لم يحدث له لم يكن بالمقدور أن يحدث له، فَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ☻ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : **"لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ** -[2].

ومراتب الإيمان بالقدر أربعة:

الأولى: الإيمان بعلم الله المحيط بكل شيء قبل خلقه وأنه عَلِم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، قال تعالى:**{وَلَوْ عَلِمَ الله فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ}** [الأنفال: 23].

والثانية: الإيمان بأن الله كتب كل شيء في كتاب، وقال تعالى:**{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ}** [الحديد:22].

والثالثة: الإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، قال الله تعالى**{وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الله رَبُّ الْعَالَمِينَ}** [التكوير29].

والرابعة: الإيمان بأن الله تعالى خالق كل شيء وخالق حركاته وسكناته، وقال تعالى**{وَالله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}** [الصافات:96].

وللشافعي أربعة أبيات يقول عنها ابن عبد البر: إنها من أثبت ما نسب إليه، ومن أحسن ما قيل في القدر نظماً:

ما شئت كان وإن لم أشأ خلقتَ ::: وما شئت إن لم تشأ لم يكن وفي العلم

(1) (صحيح) أخرجه (خ) 5397 و(م) 2219.
(2) (صحيح) أخرجه (ت) وصححه الألباني في ص.ج 7585.

العباد على ما علمتَ على ذا مننـــتَ ::: يجرى الفتى والمُسنُّ وهذا أعنتَ وذا لم
وهذا خَذلتَ فمنهم شـــقي ومنـــهم ::: تُعِن ومنهم قبيح ومنهم حسن
سعيد :::

أخـي الحبيـب، ينبغـي أن تعلـم أنـه لا يتنـافى مـع الإيمـان بالقدر فعل الأسباب بل إن من تمام الإيمان بالقدر فعل الأسباب، فَعَنْ عَلِيٍّ ☺ قَالَ: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ فَأَتَانَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ فَنَكَّسَ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ ثُمَّ قَالَ:**"مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ الله مَكَانَهَا مِنْ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله أَفَلَا نَمْكُثُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ فَقَالَ: مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَقَالَ: اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ ، ثُمَّ قَرَأَ:{فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى(5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى(7) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى(9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى(10)}** [الليل: 5 - 10] -[1].

إخوتي في الله، لقد قدر الله مقادير الخلائق حتى قيام الساعة، فَعَنْ أَبِي حَفْصَةَ قَالَ: قَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ☺ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ سَمِعْتُ. رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ:**"إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ الله الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ اكْتُبْ قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ. يَا بُنَيَّ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي** -[2].

والله قد قدر مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، فَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ☻ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ:**"كَتَبَ الله مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ**

(1) (صحيح) أخرجه (م) 2647.
(2) (صحيح) أخرجه (د) وصححه الألباني في ص.ج 2018.

وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ -[1].

والله ♣ لا يجبر الخلائق على أعمالهم، قال الحسن البصري رحمه الله تعالى وهو من سادات التابعين: لو أجبر الله الخلق على الطاعة لأسقط عنهم الثواب، ولو أجبرهم على المعاصي لأسقط عنهم العقاب، ولو أهملهم لكان عجزا في القدرة، ولكن له فيهم المشيئة التى غيبها عنهم فإن عملوا بالطاعات؛ كانت له المنة عليهم.

فالعباد مخيرون ولكنهم لا يقدرون إلا على ما أقدرهم الله عليه، ولا يشاءون إلا أن يشاء الله، ولا يفعلون إلا بجعله إياهم فاعلين، وهذا مصداقا لقول الله تعالى:{**إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى(4) فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى(5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى(7) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى(8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى(9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى(10)**} [الليل 4 - 10].

ولعل ما جاء في كتاب (الشريعة للإمام الأجري) ما فيه البيان والتوضيح في هذا الأثر الصحيح عن الحسن البصري، فعن خالد الحذاء قال: خرجت خرجة لي - أي سافر سفرا ثم عاد - ثم قدمت فقيل: إن الحسن - أي البصري من سادات التابعين - قد تكلم في القدر فأتيته، فقلت: يا أبا سعيد - أي كنية الحسن البصري -، آدم خُلِقَ للأرض أم للسماء؟ قال: ما هذا يا أبا منازل - أي كنية خالد الحذاء -؟ فقلت: إني أحب أن أعلمه، قال: للأرض، قلت: فلو اعتصم فلم يأكل من الشجرة؟ قال: لم يكن له بد من أن يأكل منها؛ لأنه للأرض خلق (35).

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

* * *

(1) (**صحيح**) أخرجه (م) وصححه الألباني في ص.ج 4474.